جان فرنسوا شامبليون

كاشف الكتابة واللغة الهيروغليفية

يعقوب موزر

جان فرنسوا شامبليون

كاشف الكتابة واللغة الهيروغليفية

تأليف
يعقوب موزر

هنداوي

جان فرنسوا شامبليون

يعقوب موزر

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٥ ٣١٩٤ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٢.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤٫٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

مقدمة من حضرة صاحب العزة الأستاذ فكري أباظة ٧
جان فرنسوا شامبليون ١١

مقدمة من حضرة صاحب العزة الأستاذ فكري أباظة

لما كنت في لندرة سنة ١٩٢٨ ذهبت أنا وجماعة من السياح الأمريكان للمتحف البريطاني. ووصلت الجماعة يقودها «الترجمان» حتى وقفت أمام «حجر رشيد» وانتظروا البيان اللازم من «الترجمان» ولكنه وقف صامتًا، ثم قال بابتسامةٍ خبيثة: سيداتي وسادتي، في جمعيتنا هذه مصري متعلم ونائب في مجلس النواب، وهو هذا السيد (وأشار إليَّ)، فمن واجبي أن أتخلَّى عن الشرح، وأن يحتل مكاني في الإبانة والإيضاح؛ فهو ولا شك يعرف أكثر مني عن حجر رشيد وعن شامبليون، فالكلمة له! ... والتفت الجميع إليَّ منتظرين الدُّرَر الغوالي والشرح المتين! ... ولكني للأسف لم أكن أعرف شيئًا كثيرًا لا عن شامبليون ولا عن حجر رشيد ... وكانت الصدمة عنيفةً والمركز حرجًا، ولكني تخلصت بأن أغميَ عليَّ فجأةً فاهتم بصحتي الجميع، ونسوا حجر رشيد وشامبليون!

هذه الحادثة كشفت لي عن عيبٍ متفشٍّ في معلوماتنا العامَّة عن تاريخنا، وعن الرجال الذين أخلصوا وضحَّوا لهذا التاريخ ...

هذا «جان فرنسوا شامبليون» مرَّت على وفاته مائة سنة، فلم يذكره عالمٌ مصريٌّ ولا صحيفةٌ مصريةٌ ولا موظفٌ مصريٌّ من موظَّفي الآثار. ولو أحيا المصريون ذكرى هذا الرجل بهذه المناسبة، لكانت فرصة نراجع فيها شيئًا عن جهود جبابرة الكاشفين لآثارات وأخبار أسلافنا، ولكن الإهمال والجحود أسدلا ستار النسيان على العظيم الذي بذل ما بذل، وضحَّى ما ضحى، فاكتشف الكتابة واللغة الهيروغليفية، وقدَّم باكتشافه خدمة عظمى لتاريخ مصر ومدنية مصر وعظمة مصر، وفتح أبوابها للسياح والعلماء ودرَّر على خزائنها الثروة من موسم السياح.

ذلك الرجل العظيم هو الذي أنطق الآثار الحجرية، فنفست فيهــا الروح بأن سلم للعلم مفتاح الرموز، فتكلَّمت ونطقت وأبانت وأفاضت على العالم الفني والتاريخ الدقيق. لــئن نسيت الحكومة ونسيت الأمة شامبليون، فإن الأب يعقوب موزر راعي كنيسة الأقباط الكاثوليك بفاقوس لم يَنْسَه، فأصدر هذه الرسالة وطبعها طبعًا متقنًا، وحرَّرها بعبــارةٍ سلسةٍ وتحقيقٍ دقيقٍ لا عن شخص شامبليون فقط، إنما عن علمــه وجهاده وطريقة بحثه وتحقيقه، فقام بواجب الحي الناضج الإحساس نحو الميت المجحود، وكشف بعبارةٍ سهلةٍ عن أعظم حادثٍ في تاريخنا المصري، فحق له الشكر من مصر والمصريين ...

طالعت الرسالة الأنيقة فكنت بمثابة طالبٍ صغيرٍ، رغم سني ورغم تجاربي ورغم معلوماتي، وشعرت بشيءٍ كثيرٍ من الخجل أمام هذه المعلومات الهامة التي يجب أن يُعنَى بها كلُّ مصريٍّ يزهو فخرًا بوطنه القديم والحديث.

إنها فرصة سعيدة أن وقع في يدي هذا الكتاب. أرجو أن تُتــاح لكل مصري من مواطنيه الأعزاء، وللأب يعقوب موزر المحقق المدقق كل شكرٍ وثناء، وكل تهنئةٍ على هذا الجهد العظيم.

فكري أباظة المحامي

حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول، أول ملك جلس على عرش مصر بعد دولة الفراعنة، محيي العلوم ومحب الآثار.

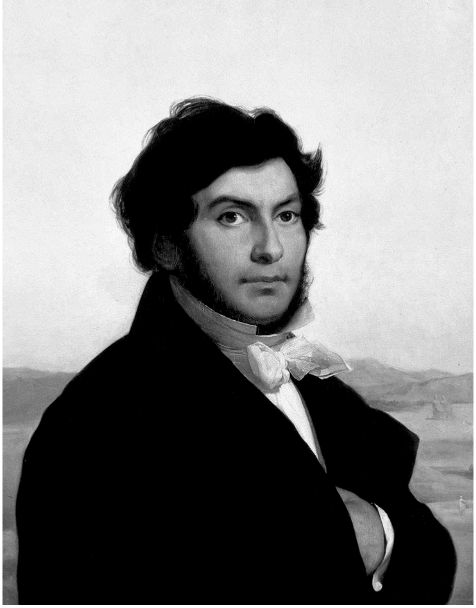

جان فرنسوا شامبليون، وُلد في ٢٣ ديسمبر ١٩٧٠، وتوفي في ٤ مارس ١٨٣٢.

جان فرنسوا شامبليون

كاشف الكتابة واللغة الهيروغليفية

«لا يزال اسمُ شامبليون حيًّا ما دامت الآثار المصرية قائمة».

(من أقوال شاتوبريان)

سائحٌ مولَع بالفنون الجميلة يزور متاحفَ مدينتَي تورينو وفلورنس في إيطاليا لا شك من أن تستلفتَ نظرَه عند المدخل بين طرائف الرسومات الصورةُ الزيتية البديعة والتمثال النصفي لمؤسس علم الآثار المصرية وكاشف اللغة والكتابة الهيروغليفية «جان فرنسوا شامبليون» (سنة ١٧٩٠–١٨٣٢) الفرنسي الذي مرَّت على وفاته في ٤ مارس المنصرم ١٠٠ سنة.

مات «شامبليون» في باريس وهو بالغ من العمر ٤٢ سنة ضحيةَ هيامه وغيرته المتَّقدة في إحياء معرفة تاريخ مصر المجيد الخالد. هذا وإنَّ كثيرين من الهولنديِّين كتبوا منذ عهد بعيد كثيرًا عمَّا يتعلق بمصر، سواء كان عن تاريخ الفراعنة، ك «ليمانس»، و«بليتي»، و«بوزر»، و«دي بوك»، أو عمَّا يتعلق باللغة العربية؛ كالعالم «فان ديك»، أو عن تاريخ الحضارة الإسلامية وأصلها؛ ك «شانتبي دي لاسوسي»، و«دي جويي»، و«سنوك هوجرنيي». إن ذيوعَ صيتِ «شامبليون» الذي ملأ الآفاق وأهميةَ اكتشافاته والتقدم المطَّرد لعلم الآثار المصرية من مدة أربعين سنة، كل هذا حملني بصفتي مرسلًا هولنديًّا بأرض

جاسان[1] عاملًا على هداية النصارى إلى مركز الوحدة الدينية، لأنْ أزفَّ إلى القرَّاء الأجلاء لمناسبة التذكار المئوي لوفاة «شامبليون» عجالةً عن حياة هذا الرجل العامل والعالم النابغ فريد عصره، وإني لا يُداخلني الشكُّ ولا لحظة بأن القارئ اللبيب سيجد في سيرة حياة هذا البطل مثالًا عاليًا لأسمى الفضائل الأدبية؛ مثل محبةِ الوطن والتضحية لرفعتِه وحبِّ العلم والعمل النزيه والثبات أمام الصعاب وبذل القوات النفسية والأدبية في السعي وراء غرضٍ معين شريف، هذا ما تتطلبه مصر الناهضة من شبيبتها الناضرة في مثل هذه الأيام. نعم سنرى أمامنا حياةً قصيرة لا تزيد عن ٤٢ سنة كلُّها عزمٌ وجهاد عجيب وعملٌ نافع وتذليل للصعاب التي كلَّلها الله تعالى بالنجاح الباهر حتى صار له القِدح المعلَّى في جميع الاكتشافات الحديثة في ميدان علم الآثار المصرية. كانت الحضارة المصرية القديمة بعد تعاقُب الأجيال مخبوءةً في شقوق الجبال والصخور وأعماق الأهرام والمغائر تحت الرمال الداثرة، ومقبوضًا عليها بحراسة أبي الهول، حتى قام بعد مرور خمسة عشر جيلًا أوديبوس آخر بنبوغِه النادر وكدِّه الذي لم يعرف الوهن انتزع الأسرار المصرية المكنونة من بين مخالب ذلك الرابض القابض.

وُلد «جان فرنسوا شامبليون» في فيجاك من أعمال فرنسا في مقاطعة لوت في ٢٣ ديسمبر سنة ١٧٩٠، ودُعيَ «شامبليون» الأصغر لتميُّزه عن أخيه الأكبر «شامبلِيون فيجاك» مؤرخ فرنسا الشهير الذي تكفَّل بعد موتِ والدَيه بتربيته العلمية الأولى، فأدخله في ليسيوم جرنوبل؛ حيث فاقَ جميعَ زملائه بذكائه المفرط الحاد واستعداداته العجيبة لتعليم اللغات الشرقية وتاريخ الأمم القديمة.

كان «شامبليون» وهو تلميذ في تلك المدرسة مشغوفًا بالاستطلاع على الكتب التي تحدِّثه عن حياة وحضارة الأمم الشرقية القديمة مثل البابليِّين والآشوريِّين والفارسيِّين والفينيقيِّين والعبرانيِّين والمصريِّين والأحباش، وكان يقضي أوقاتَ فراغه في مكتبة مدرسته ويدرس، بدون إرشاد أستاذ، العبراني والسرياني والكلداني والجيز (إحدى اللغات الحبشية) والصيني، ولا سيَّما اللغة القبطية، حتى بعد فوات ثلاث سنين صار له إلمامٌ بمبادئ هذه اللغات. وقد استدرك أنَّ إلمامَه باللغة القبطية هو الطريق الوحيد والأكيد

[1] تك ٤٧: ٢٧ الأرض التي أقام فيها أبونا يعقوب وذريتُه أيام غُرْبتهم بمصر.

ليقودَه إلى الحصول على معرفة اللغة المصرية القديمة التي جهلها المستشرقون تمامًا في ذلك الحين. وفي سنة ١٨٠٧ وقد بلغ السادسة عشرة من عمره ألقى ذلك الطالبُ النابغُ محاضرةً اندهش لها الجموعُ أمام أكاديمية جرنوبل، وأثبت فيها أن اللغة القبطية لها علاقة متينة باللغة الهيروغليفية، وأنها آخر أطوار اللغة المصرية القديمة، كما أيَّد هذه الفكرةَ سابقًا الآب اليسوعي «كيرشر» في سنة ١٦٣٦. والدليل الواضح على ميوله المبتكرة للبحث وعلى المقصد الذي رمى إليه جميع أعمال حياته أنه وهو بالغ السابعة عشرة سنة قدَّم مقالةً علمية لجمعية العلوم والفنون الجميلة في جرنوبل وعنوانها «وصف جغرافي عن مصر في العصور القبطية»،[٢] وهذا التأليف الأول كان بمثابة أساس لكتاب قيِّم ألَّفه فيما بعد تحت عنوان «مصر في عهد الفراعنة» جزأين في سنة ١٨١٤.[٣]

إن «شامبليون» وهو لم يزَل طالبًا في المدرسة الثانوية في جرنوبل نشر نبذةً علمية أثبت فيها أن الجبابرة المذكورين في الكتاب المقدس والأساطير اليونانية كانوا عبارةً عن رموز عن الحوادث الطبيعية.

في سنة ١٨٠٧ سافر «شامبليون» بعد إتمام دروسه إلى باريس لكي يتلقَّى العلوم الشرقية مدة سنتين في مدرسة اللغات الشرقية وجامعة فرنسا Collège de France.

وهنا انتهز فرصة إقامته للبحث عن المخطوطات القبطية المحفوظة في المكتبة الأهلية Bibliothèque Nationale، وللتعارف بالفرنسيِّين المستشرقين؛ ك «لانجلس، ودي ساسي، وشيزي، وميلين» الذين حافظ معهم على علاقاته الودية والعلمية حتى مماته.

يهمُّنا جدًّا أن نتبع هذا الشابَّ النجيب من ابتداء إقامته في باريس «المدينة الملآنة بكل الأسباب التي تُلهي الطالب عن دروسه» مبتعدًا عن الضوضاءِ والملاذِّ الباطلة وكلِّ ما يقضي على حياة النفس، وهو كناسكٍ في صومعته لا يفارق غرفتَه إلا حين ذهابه إلى المكتبة الأهلية ليشفيَ غليله من موارد الكتب القديمة، فهو بذلك مثالٌ عالٍ لطلاب عصرنا في عَكْفهم على طلب العلم واستثمار أوقاتهم الثمينة. هناك شاهدٌ ما تصبو إليه نفسُه ليراه منذ حداثته، وهي الأوراق البردية. نراه في باريس يطَّلع على أبحاث «توماس ينج» الأثري

[٢] Description géographique de l’Egypte à l’époquecopte.

[٣] L’Egypte sous les Pharaons. 2 vol. 1814.

الإنجليزي الشهير، وما وصل إليه العالم «زويجا» في درسهما حجر رشيد، وينظر «ينج» واقفًا في وسط طريقه ولم يستطع أن يَصِل إلى حلِّ رموز اللغة الهيروغليفية.

قرر المستشرقون في ذلك الحين بالإجماع أن فكَّ تلك الرموز أمرٌ عسير، وظنُّوا أن هذا فوق الطاقة، وأراد كثيرٌ منهم أن يُقنع «شامبليون» بأن أتعابه في هذا السبيل ستذهب سُدًى، ولكنه لم يعبأ بأقوالهم، بل سار إلى الأمام مملوءًا بالثقة التي تحققَت بعد أربع عشرة سنة، وهاك ما كتبه إلى أخيه الأكبر مبدئيًّا حين لم يكن في إمكانه قراءة محتويات الأوراق البردية، وهذا نصُّه «أما بخصوص الأوراق البردية التي عثرتُ عليها فقرأتُ منها سطرًا ونصفًا، وقد كوَّنتُ مجموعةَ حروف هجائية مما وجدتُه على حجرٍ أثريٍّ مشهور، ولو أني اقتبستُ منها المعنى ووضعتُه في أسلوب لائق، إلا أن هذا لم يساعدني على ترجمة باقي السطور التي في الورقة لسبب عدم فهمي جمعية الكلمات. درستُها وتأمَّلتُها أيامًا كثيرةً دون أن أفهمَ شيئًا منها، فقلتُ لنفسي وقد عجزتُ عن قراءتها: لا سبيل لي إلا أن أعودَ إلى دراسة اللغة القبطية، ولربما بعد زيادة إلمامي بها أجد المفتاح لحلِّ الرموز.» وبعد سنة كتب هذه العبارة لأخيه: «لقد صرتُ أخيرًا مُلمًّا باللغة القبطية لدرجة أنه يمكنني أن أعبِّر بها عن كل أفكاري، ولعدم وجود زميل لي يخاطبني بهذه اللغة كنتُ أُكالِمُ نفسي بها، وإني لا أشك بأنها الطريقة الوحيدة لبلوغي إلى حلِّ الحروف الهيروغليفية، وسأعود بعد الإتمام منها إلى درس الأوراق البردية، وأملي وطيدٌ بأن أبلغَ أمنيَّتي.»

هذا كلام «شامبليون» وهو في باريس وعمره ثماني عشرة سنة، وكان هذا قبل اكتشافه معانيَ الحروف الهيروغليفية بأربع عشرة سنة، ولنلاحظ أنه في خلال هذه الفترة ألَّف آجروميةً وقاموسًا للغة القبطية لم يظهرَا حتى الآن.

عاد في سنة ١٨٠٩ إلى جرنوبل على أثر تعيُّنه من الحكومة الفرنسية أستاذًا مساعدًا في علم التاريخ في كلية الآداب، ومن هذا التاريخ لغاية سنة ١٨١١ بدأ في تأليف الجزء الأول من كتابه المشهور «مصر في عهد الفراعنة»، ويحتوي هذا التأليفُ الثمين النادر الوجود الآن الذي طُبعت منه مائة نسخة فقط على وصفٍ تمهيدي جغرافي عن مصر قديمًا، مبني على مستندات قبطية وعربية قديمة وأخبار اليونانيِّين والرومانيِّين. ولَمَّا رأَت الحكومة الفرنسية أن «شامبليون» مالَ إلى مبادئ «نابليون» السياسية أقالَته من وظيفته، ومن ذاك الوقت بدأ «شامبليون» يخصِّص أوقاتَه في مطالعة ودرس مخطوطات تاريخ مصر القديم الواردة في المجموع الكبير الشامل على ٩٠ رسمًا في أحد عشر جزءًا ومذكرات في ستة وعشرين

جزءًا (في الطبعة الثانية سنة ١٨٢١) المعروف بوصف مصر،[٤] الذي نشرَته أعضاء الحملة الفرنسية العلمية في مصر تحت قيادة «بونابرت» سنة ١٧٩٨.

بعد مقارنة الخطوط التي على الآثار الحجرية والأوراق البردية وضع في سنة ١٨٢١ تأليفًا نفيسًا بشأنها تحت عنوان: «مذكرات عن الخط الهيراطيقي والخط الديموطيقي والخط الهيروغليفي لقدماء المصريين».[٥]

وفي هذه المذكرات كانت أول إثباتاته عن نظريته، التي ظهرت فيما بعد الأثبت والأصوب، بأن هذه الثلاثة خطوط التي استعملها المصريون في مختلف عصور تاريخهم لا تفترق عن بعضها جوهريًّا.

ولكي يفهمَ القارئ هذه النظرية نأتي إليه ببيان وجيز عن كلٍّ من الثلاثة خطوط التي تداولَت في مختلف أوقات تاريخ مصر، فنقول: إن الخط الهيروغليفي بمثابة الأصل لسائر الخطوط التي أُنشئت منه، وهما الخط الهيراطيقي والديموطيقي، وأمَّا معنى كلمة هيروغليف فهي يونانية الأصل مركَّبة من كلمتين: هيروس وغليف، وترجمتها الخط المقدس.

يدعو المؤرخان «هيرودوتوس» (٢:٣٦) و«ديودوروس الصقلي» (٣:٣) الهيروغليف الحروف المقدسة، كما وأن «أكليمندس الإسكندري» يسمِّيها في كتابه الستروماتا (٥:٤) الحروفَ الإلهية المنقوشة، وهذه التسمية هي بنسبة نقشها في الآثار الحجرية، وقيل في الأساطير إن إله الحكمة تحوت قد اخترع هذه الحروف؛ ولذلك دُعيَ تحوت في نصوص الأهرام رب الأقوال الإلهية.

يرجع أصل تاريخ الخط الهيروغليفي إلى الزمان الذي كان قبل الأُسَر الفرعونية predynastic، ونجده في العصور الأولى من الدولة القديمة، مثلًا على أهرام سقارة بـ ٢٥٠٠ سنة ق.م. كخطٍّ يكتبه الكاتب المصري بغاية المهارة والدقة، مثل ما يُحسن الآن الخطاط المصري الكتابةَ العربية.

كانت إشاراتُه في بادئ الأمر صوريةً كصورة حلقة تمثِّل الشمس كصورةِ ذراع تبيِّن الفعل أعطى، أو رمزية مثل ريشة النعامة التي معناها العدل، أو جعلًا (جُعرانًا) الذي يمثِّل الشمس وأيضًا الفعل أصبح. ولكثرة وجود صور الطيور فيه سمَّى العرب اللغةَ

[٤] Description de L’Egypte. Paris 1809.

[٥] Mémories sur l’écriture hiératique, sur l’écriture démotique et sur l’écriture hiéroglyphique des anciens Egyptiens.

المصرية القديمة لغة العصافير. وكانت لإشاراتها ذات حجم، ولها فائدتان: أولهما الكتابة وثانيهما الحلية التي تُكسب جدرانَ الهياكل وجوانبَ المقابر بداعةً وجمالًا.

يحتوي هذا الخط على ٣٤ إشارةً تعبِّر عن ٢٤ حرفًا هجائيًّا، وعلى عدد كبير من الإشارات المقطعية: (نحو ٥٠٠ منها ١٤٠ أكثر استعمالًا)، وعلى إشارات معنوية، منها ما تُفسر الكلمات وهي قليلة جدًّا، ومنها إشارات متممة، وهي على نوعين: متممة عامة ومتممة خاصة، والنوع الأخير عديدة.

أما بخصوص مسير هذا الخط فكان إما من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين حسب اتجاه رءوس صور الأشخاص والحيوانات في النقوش، وهكذا نجده على كلِّ الآثارات الحجرية لا سيَّما على جوانب المقابر في تدوين النصوص الدينية، وأحيانًا على الأوراق البردية، ونراه بهذه الكيفية في جميع عصور تاريخ مصر حتى الجيل الرابع ب.م. عندما أُبطلت اللغة الهيروغليفية.

أما الخط الهيروغليفي كما رأينا سابقًا فهو يشمل عددًا كبيرًا من الإشارات التمثيلية، وهي صور أشخاص وحيوانات وأجزاء من الجسم البشري؛ مثل اليد والذراع والعين والقلب والرِّجل ... إلخ، وعلى نباتات وأشياء أخرى، وهذا ما جعل استعمالَه صعبَ المنال عسيرَ المأخذ. ولَرُبَّ من قائلٍ يقول: إن المصريين حذَوا حذوَ غيرهم من الأمم، بأن اتخذوا من بين هذه الحروف التي تربو عن مئات الإشارات عددًا قليلًا لثلاثين مثلًا، وكوَّنوا منها مجموعةَ حروف هجائية تنوب في الكتابة عن الحروف الصوتية. كلَّا، إن الأمر ليس كذلك؛ فأنا لم أجد أثرًا لتلخيص مثل هذا، بل اكتفَوا باختصار الإشارات وأمالوها لتسهلَ سرعة الكتابة، وهكذا أُنشئ الخطُّ الهيراطيقي في الدولة الأولى والديموطيقي في أوائل الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٠ق.م.) ومن مزايا الخط الهيراطيقي (وهي كلمة يونانية الأصل معناها كهنوتي، ودُعيَ هكذا لاستعماله في بادئ الأمر من الكهنة) أن حروفه مستديرة، وأن مسيرَه دائمًا من اليمين إلى اليسار، إمَّا في سطور أفقية أو رأسية، وهو على نوعين: الأول واقف وحروفه منفصلة، والآخر مائل. كان استعمال هذا الخط على الأوراق البردية في التأليفات العلمية والطبيَّة واللاهوتية والأدبية، ومرارًا على القِطَع الحجرية. ظل المصريون يستعملون الخطَّين الهيروغليفي والهيراطيقي حتى بعد انتهاء الدولة الحديثة. أما من عهد الصاو (من ٦٦٣–٥٢٥ق.م.) نرى الكتَّابَ لكثرة أعمالهم الكتابية من عقود وأحكام وقائمات يُحرِّرون كتاباتِهم بإشارات مختصرة سهلة الاستعمال بالنسبة إلى الخطَّين المذكورَين، وتكاد ألَّا تُشبه إشارات الخط الهيروغليفي والهيراطيقي. أما الآن وقد تدرَّجنا بالقارئ إلى

الجيل السابع قبل المسيح، فقد أُبطل الخط الهيراطيقي وأصبحنا أمام خطٍّ جديد يُدعَى الديموطيقي (كلمة أصلها يوناني مشتقة من ديموس، أي شعب) أي الخط الشعبي. أما الخط الهيروغليفي فقد أمسى قاصرًا عما يتعلق بالأمور الدينية فقط. وقد بيَّن حقيقةَ الحال «هيرودوتوس» المؤرخ اليوناني الذي زار مصر في الجيل الخامس قبل المسيح؛ إذ يقول: διφασίοισί δέ γάμμαι χρέωνταїї καί τά μεν αύτών ίερά τα δε οημοτι κά καλειταί II. 36.

نشأ الخط الديموطيقي من الهيراطيقي في أوائل الأسرة السادسة والعشرين في الجيل السابع قبل المسيح، وكان ذلك في مدينة أخميم؛ لأن أهل هذه المدينة التجارية قصدوا اختصارَ الخط الهيراطيقي لمعاملاتهم التجارية. ودام استعماله لغاية العصر الروماني، وأُبطل نهائيًّا في الجيل الرابع ب.م. إذ وجده الأقباطُ خطًّا معقَّدًا لتحرير الأمور الاعتيادية، واستبدلوه بالحروف اليونانية.[٦] من مميزات هذا الخط أن إشاراتِه مائلةٌ وأصغرُ حجمًا وأقلُّ عددًا من الهيروغليفي، ولها قليلُ الشبه بالحروف العربية، وتُكتب أفقية من اليمين إلى اليسار، أما استعماله فكان مثل الهيراطيقي على الأوراق البردية وأحيانًا على قِطَع حجرية وفخارية ostraka وذلك في تدوين الأمور العادية؛ مثل تحرير رسائل وعقود وأحكام وكلِّ ما لا يختص بالأمور الدينية.

زال هذا الخطُّ مع الهيروغليفي نهائيًّا بزوال الوثنية عند إصدار أمر الإمبراطور «تيودوسيوس» الذي أمر بقفل جميع المعابد الوثنية وبتحريم إقامة الطقوس الوثنية في سنة ٣٨٩ب.م.

في سنة ١٨٠٢ اكتشفَا العالِمان الأثريان «سيلفستر دي ساسي» الفرنسي و«أكربلاد الأسوجي» الحروفَ الهجائية للغة الديموطيقية عند درسهما النصَّ الديموطيقي الوارد على حجر رشيد، ولا سيَّما اشتهر «هنري بركش باشا» الأثري الألماني فيما بعدُ بأبحاثه في هذه اللغة ووضَع لها آجرومية[٧] في سنة ١٨٥٥، وقاموسًا[٨] في سنة ١٨٨٢.

لنرجع إلى «شامبليون» الذي ضبط معانيَ الحروف الهجائية وقيمتَها الصوتية بعد بحثٍ دام ما بين سنة ١٨٢٢ لغاية ١٨٢٤، ولنقدر سرَّ اكتشافه الذي هو فخره، وبه فتح الطريق لسائر الأبحاث العلمية للغة وتاريخ مصر قديمًا، ويجب أن نلاحظَ أولًا

[٦] كانت للإشارة الديموطيقية الواحدة أشكالٌ مختلفة.

[٧] Grammaire démotique. Paris 1855.

[٨] Hieroglyphisch-demotisch Wörterbuch. Leipzig 1882.

أن المصريين ما كانوا يكتبون منذ حكم «بسامستيك الأول» (٦٦٣–٦٠٩ق.م.) لغتَهم في أمورهم المتداولة بالهيروغليفي بل بالديموطيقي، وأنهم فقدوا تدريجيًّا وقت دخول النصرانية في عهد الحكم الروماني معرفةَ قراءة كتُبهم القديمة. ولا يظن القارئ بأنه عند إبطال الخطَّين الهيروغليفي والديموطيقي مع زوال الديانة الوثنية في أواخر الجيل الرابع ب.م. قد ماتَت اللغة المصرية تمامًا، كلَّا، بل أصبحت تحت صورة اللغة القبطية، وهي آخر أطوارها، واستبدل الأقباط حينذاك الحروفَ الهيروغليفية والديموطيقية بحروف هجائية محضة اتخذوها من اليونانيِّين عن الفينيقيِّين. إن اللغة القبطية الجديدة التي استُحدث كيانها من اللغة الديموطيقية تحت عدة تأثيرات، تضمَّنت خمس لهجات، وهي: البحيرية، وكان استعمالها في الدلتا، والآن موجودة في الكتب الطقسية عند الأقباط الكاثوليك والأرثوذكس. والصعيدية ومصدرها من مدينة طيبة (الأقصر الآن)، ومنها إلى جميع الوجه القبلي وهي أقدمها. والأخميمية بمدينة أخميم. والبشمورية[٩] أو الفيومية بواحة الفيوم وسائر الواحات. والمنفية لأهل منف (الآن سقارة). وأكثر ما عليه من المخطوطات القبطية كُتب باللهجتَين البحيرية والصعيدية، وهما الأكثر شهرة.

إن المصريين الذين لما قَبِلوا كرازةَ الإنجيلي «مرقص» وتنصَّروا؛ تكلَّموا اللغةَ القبطية في خمس لهجاتها، متخذين الحروفَ الهجائية اليونانية (عددها ٢٤)، ومحافظين فقط على سبعة حروف من اللغة الديموطيقية لعدم وجود نظائرها في اللفظ بالحروف اليونانية، وهي شاي، وفاي، وخاي، وهوري، وجنجا، وأتشيما، وتي، عجزوا عندئذٍ عن قراءة وتفسير آثار حضارتهم القديمة؛ كالنقوش التي على الحجارة، والنصوص التي على الأوراق البردية، وأمسَت هذه الشواهدُ ككتابٍ مقفل لديهم. غير أن بعض العلماء من مصريِّين ويونانيِّين، مؤرِّخين وسيَّاح، كـ «مانيتون»، و«هيرودوتوس»، و«سترابون»، و«ديودوروس الصقلي»، دوَّنوا في أخبارهم شيئًا يسيرًا من تأريخ مصر وأسماء ملوكها. ولكن حيث إن معظم هذه الأخبار تُلقِّيَت من أُناس لم يفهموا اللغةَ المصرية ولم يُدركوا أسرار ديانتها، فكانت لهذه الأخبار قيمة تأريخية قليلة للخلف.

دام استعمالُ اللغة القبطية كلغةٍ حيَّة من الجيل الرابع ب.م. لغاية دخول العرب حين أبطلها «الوليد بن عبد الملك بن مروان» من خلفاء دولة بني أمية من الدواوين الرسمية

[٩] كانت بشمور مدينة في الوجه البحري قديمًا.

(٦٨٥–٧٠٥ب.م.) وبعد مرور ثلاثماية سنة قام الحاكم بأمر الله بن العزيز من خلفاء الدولة الفاطمية، وأصدر أمرًا بإبطالها نهائيًّا تحت عقاب. إن من الجيلَين السابع عشر والثامن عشر لم يتكلم الأقباط لغتَهم، وأصبح استعمالها قاصرًا على الطقوس الدينية وفي قليل من قرى الصعيد والأديرة القبطية، أما في أيامنا هذه فلا يوجد قبطي يستطيع أن يتحدث بلغة أجداده، والآن تُدرس في معظم الجامعات الأوروبية والجامعة المصرية أيضًا باعتبارها لغةً علمية أثرية.

في أواخر الجيل الثامن عشر قام «سيلفستر دي ساسي» و«أكربلاد» ولا سيَّما «جورج زويجا» الدنماركي الذي درس في مكتبة الفاتيكان المخطوطاتِ القبطيةَ ودمجها في سنة ١٨١٠ تحت عنوان «قائمة المخطوطات القبطية في متحف برجيانو فيلتريس»،[١٠] وأنشئوا نهضةً قوية لدرس اللغة القبطية كان من ورائها فوائدُ جمةٌ لمعرفة عقيدة وطقوس النصرانية في مصر في الأجيال الأولى للمسيحية. لكن بما أن الأوراق البردية لأكثرها صبغة دينية، ولم تحوِ إلا على أخبار استشهاد الشهداء وآيات الكتاب المقدس والأناجيل الأبوغريفية وسِيَر القديسين وقوانين المجامع والأديرة ومواعظ وكتُب تقوية خاصة بالرهبان وقليل من النصوص المدنية مثل رسائل ونصوص سحرية، كانت اللغة القبطية واسطةً ضعيفة للوصول إلى معرفة اللغة الهيروغليفية.

ولما كلَّفت حكومةُ الديكتوار الفرنسية «بونابرت» القائدَ الفرنسي العظيم في سنة ١٧٩٨ بحملة حربية إلى مصر ليضادَّ هناك سياسةَ إنجلترا في الهند، كان من ذكاء هذا القائد أنه أرفق تلك الحملةَ ليس فقط بعددٍ وافر من العساكر والذخائر، لكن أيضًا بنخبة من علماء ومهندسين وجيولوجيِّين وكيماويِّين، الذين جمعوا ثمار أبحاثهم النيرة في تأليفٍ ضخم معروف بوصف مصر، وذلك في سنة ١٨٠٩.

وبعد هذه المقدمة التي لتطور اللغة المصرية القديمة وخطوطها في مختلف العصور ننقل بالقارئ اللبيب إلى كيفية اكتشاف الحروف الهجائية الهيروغليفية؛ وذلك أنه في سنة ١٧٩٨ عثر الضابط المدفعي «بوسارد» على حجر رشيد بينما كان يحفر خندقًا عند قلعة سانت جوليين بقرب رشيد، ونقل هذا الحجر التأريخي حسب البند الثاني عشر من معاهدة تسليم الإسكندرية المنعقدة بين الجنرال «مينو» وإنجلترا (في سنة ١٨٢١) إلى المتحف

[١٠] Catalogus Codicuni Copticarum manuscriptarum, qui in Museo Borgiano Velitris adservantur. 1810.

البريطاني بلندرة؛ حيث لم يزل موجودًا حتى الآن. وعلى هذا الحجر البصلت الأسود الذي هو عبارة عن قطعةٍ من لوحة حجرية، منقوشٍ عليها نصُّ قرارٍ صادر من الكهنة المجتمعين في مدينة منفيس احتفالًا بـ «بطليموس الخامس أبيفانوس» ملك مصر لمناسبة التذكار الأول لتتويجه (١٩٧ق.م.) وطول هذا الحجر[١١] ١١٢ سنتي مترًا وعرضه ٧٠ سنتي مترًا، وعليه أربعة عشر سطرًا هيروغليفيًّا واثنان وعشرون سطرًا ديموطيقيًّا وأربعة وخمسون سطرًا يونانيًّا. حُرِّر هذا النص باللغة المصرية القديمة بحروف هيروغليفية وديموطيقية وباللغة اليونانية، وكان العثور عليه من أهم الوسائط لحلِّ رموز اللغة المصرية. إن «شامبليون» بدأ يُترجم النصَّ اليوناني الوارد على هذا الحجر والذي كان معروفًا لديه، ثمَّ قارن اسم «بطليموس الخامس» الوارد في الخانة (الخانة أي cartouche عبارة عن حلقة مستطيلة داخلها اسمُ الملك أو الملكة بالهيروغليفي) مع اسم هذا الملك باللغة اليونانية، وبعد أبحاث مطولة نجح أخيرًا في حلِّ بعض حروف هجائية من اللغة الهيروغليفية.

يجب القول بأن بعض علماء قبل «شامبليون» في الجيلَين السابع عشر والثامن عشر اجتهدوا في سبيل حلِّ رموز هذه اللغة، ولكن بقيَت هذه المجهوداتُ عقيمةً لكونهم أخطئوا في تصديق الشهادات المخطِّئة لليونانيِّين واللاتينيِّين القائلين إن كلَّ الإشارات تدل على رموز عن معانٍ أو كلمات.

بين سنة ١٨١٤ و١٨١٨ درس العالِمُ الطبيعي «توماس ينج» قبل «شامبليون» النصَّ الهيروغليفي على حجر رشيد وحجر آخر، وأوصلَته أبحاثُه إلى حلِّ خمسة حروف، وهي p، t، i، n، f وتمكَّن من قراءة خانات «بطليموس»، و«برينيس»، و«أرسينوي»، لكنه لم يستطع أن يضبط القيمةَ الصوتية لكلٍّ من حروفها لما خالج فكرَه من أن معظم الإشارات الهيروغليفية مقطعية، فلم يستطع أن يُواصل اكتشافه الأول.[١٢]

نذكر للقارئ أن الإشارات الهيروغليفية عديدة تُناهز السبعمائة حرف، بعضها صوتية، وهي إمَّا هجائية أو مقطعية، والبعض الآخر معنوية تدل على معانٍ، وهي إمَّا مفسرة الكلمات أو للتمييز وزيادة الإيضاح، وتُدعى إشاراتٍ متممةً وموضوعة في أواخر

[١١] قد ضاع قمَّتُه وزاويتاه من أعلى وزاويتاه اليمنى من أسفل، وهكذا فقدت ستة عشر سطرًا من النص الهيروغليفي.

[١٢] نشر «توماس ينج» في سنة ١٨١٩ نتيجةَ أبحاثه في الجزء الرابع من دائرة المعارف الإنجليزية. Encyclopaedia Britannica vol. IV.

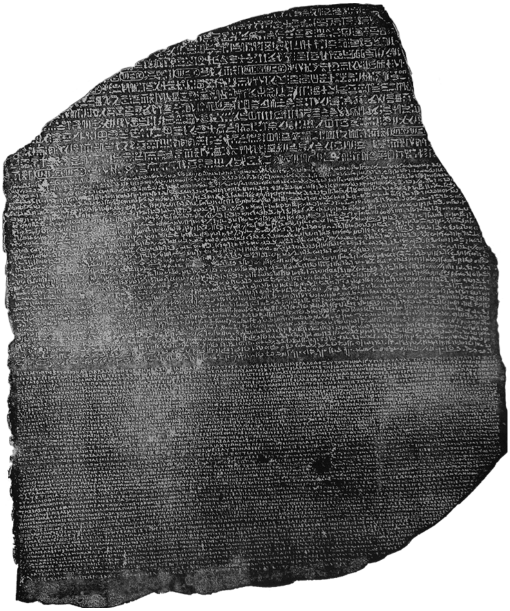

حجر رشيد.

الكلمات. ومن حيث إنه في اللغة المصرية القديمة تكون للكلمة الواحدة معانٍ كثيرةٌ مختلفة، اعتاد المصريون بوضع إشارات متممة في أواخر الكلمات لتحديد المعنى؛ مثل إشارة رَجل واضع يده على فمه، فهي تُوضع في أواخرِ كلِّ الأفعال الدالة على الأعمال التي يقوم بها الفم؛ كشربٍ وأكل وتكلم وصرخ، أو إشارة رِجلَين للأفعال الدالة على ما تقوم به الرِّجلان؛ كمشي وجري ... إلخ، أو إشارة رَجل في يده عصًا للكلمات التي تدل على القوة.

وجد «شامبليون» أيضًا أن بعضًا من المتحركات والساكنات تُكتب مرارًا بإشارات مختلفة تُعرف بـ homophones؛ مثل م، ن، س، ت، وأن معظم الإشارات المقطعية تقبل التلفُّظ بأكثر من طريقة، وتُعرف بـ polyphones مثلًا للكلمات «كأد، دن، سم» إشارة واحدة، أما تلفُّظها ومعانيها فتختلف.

قد أخذ «شامبليون» ما وصل إليه «جورج زويجا» قاعدةً له في حلِّ الرموز الهيروغليفية، ولا نكيرَ أنها هي التي سهَّلت له الطريق؛ لأن «زويجا» قد لاحظ فعلًا

أن الخانات تحتوي على أسماء ملوك، وأنه توجد في اللغة الهيروغليفية إشارات هجائية ومعنوية.

وضع «شامبليون» في سنة ١٨٢١ أولَ ثمرة أبحاثه بشأن فكِّ الخطوط الثلاثة في تأليف صغير، تكلمنا عنه في بدء موضوعنا، وهي المذكرات عن الخط الهيراطيقي والديموطيقي والهيروغليفي للمصريين القدماء. وبعد دراسة محتويات حجر رشيد وجد اسمًا آخر خلافًا لـ «بطليموس»، وهو «كليوبطرة» في مسلة فيلا (وهي جزيرة واقعة جنوبي مدينة أسوان)، وقد نشرَت نصوصَها الحملةُ الفرنسية في تأليف «وصف مصر سنة ١٨٠٩»، وكانت هذه النصوص منقوشةً على قاعدة المسلة ومكتوبة باللغتَين اليونانية والهيروغليفية، ومحتوية على أمر صادر من لفيف كهنة المصريين احتفالًا بـ «بطليموس» وأخته «كليوبطرة». ولما درس هذه النصوص وجد اسم «بطليموس» بالهيروغليفي كما هو مدوَّن في حجر رشيد، فأخذ يقارن خانة «كليوبطرة» مع خانة «بطليموس» لعله يجد في اسمَيها حروفًا هجائية مشتركة، وقد كان أنه استنتج من ذلك أربعة حروف هجائية O، L، T، P المشتركة بين اسمَي الملك والملكة، وبطريقة المقارنة هذه تأكَّدَت له صحةُ هذه الأربعة الحروف، كما وأنه وجد في الكرنك خانةً عن اسم الملكة «برينيس»، وتمكَّن من حلِّ حروفه. وحينئذٍ اقتنع «شامبليون» بأن أسماء الملوك من عهد البطالسة لم تحوِ إلا على حروف هجائية لا رمزية، وأصبحَت الحروفُ الهيروغليفية التي تكوَّن منها Ptolemaios معروفةً لديه، وهكذا الحروف المكوِّنة لاسم «كليوبطرة» و«برينيس». وكانت طريقةُ المقارنة التي سار فيها «شامبليون» قائمةً في أن جميعَ الحروف المشتركة في الكتابة اليونانية في أسماء «بطليموس» و«كليوبطرة» و«برينيس» و«إسكندر» هي أيضًا مشتركة باللغة الهيروغليفية، وأن الحروف غير المشتركة باليوناني هي أيضًا غير مشتركة بالهيروغليفي. ولم يكتفِ بهذه الاستنتاجات الهامة الأولى، بل اتسع نطاقُ بحثِه لَمَّا عثر على خانات أخرى وردَت على مسلات وجدران بعض الهياكل من عهدَي البطالسة والرومان، وبعد وقتٍ وجيز وصل إلى حلِّ عددٍ كبير من أسماء ملوك وقياصرة رومانيِّين باتخاذ نفس طريقتَي المقارنة والإسقاط، وبذا تمكَّن من معرفة حروف هجائية للغة الهيروغليفية، فكان عمرُه وقتئذٍ اثنين وثلاثين سنة. وبعد هذا العمل الأساسي سعى في حلِّ كلمات أخرى ليست أسماءَ أعلام فقط، بل وأيضًا في حلِّ جُمَل وعبارات وردَت على جدران الهياكل وعلى ستيلات (وهي ألواح حجرية)، مثل ستيلة صان الحجر، ولم يمضِ عليه حينٌ حتى استطاع أن يُكملَ الهجائية الصوتية الأولوية في ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٢٢. طفح قلبُ «شامبليون» بالفرح والسرور حين قدَّم لأكاديمية الكتابات

والآداب Académie des Inscriptions et Belles Lettres بباريس تقريرًا علميًّا وافيًا عن الهجائية الهيروغليفية الأولوية التي اكتشفها.

وضع باكتشافه الهجائية وهي إنتاجُ بحثه الذي استغرق زهاءَ السنتين الأساسَ الأول لحلِّ غوامض هذه اللغة المجهولة منذ خمسة عشر جيلًا، كما وأنه مهَّد الطريقَ لمعرفة الحضارة الفرعونية مع عجائبها ونقوشها، وعندئذٍ أُنشئَت المصرلوغية.

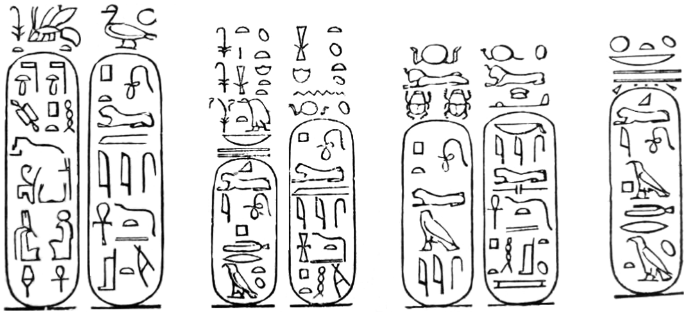

١ ٢ ٣ ٤

خانة ١ و٢ لـ «بطليموسين» و٣ لـ «قيصر أغسط» و٤ لـ «كليوبطرة».

ولدينا في صحيفتَي ٨ و٩ من خطابه إلى جناب داسي السكرتير العام للأكاديمية المذكورة[١٣] خلاصةُ اكتشافه اللغوي، ولفائدة القارئ يجمل بنا أن ننقلَ أهمَّ صحيفة من هذا الخطاب الشهير ليفهم القارئُ بأيِّ طريقة وصل «شامبليون» إلى ضبط معاني الحروف الهجائية، وهذا نصُّه:

> إنه في اسم «بطليموس» لا بد من عدم وجود الإشارة الأولى من اسم «كليوبطرة» التي رسمها ربع دائرة، وتمثِّل الـ K اليوناني، وفعلًا لا توجد في خانة «بطليموس». والإشارة الثانية وهي أسد رابض وتمثِّل الـ L اليوناني تُشبه

[١٣] Lettre a Mr. Dacier relative a l'alphabet des hiéroglyphes phonétiques employés par les Egyptions. 1822.

تمامًا الإشارةَ الرابعة لاسم «بطليموس»، وهي أيضًا الـ L. إن الإشارة الثالثة لاسم «كليوبطرة» هي ريشة أو ورقة تمثِّل المتحركة القصيرة E؛ ولذا نرى في آخر اسم «بطليموس» ورقتَين شبيهتَين، ويجب أن يكون لهما قيمةُ الانضغام الحرفي (diphthong) A I نظرًا لوضعهما في الاسم. والإشارة الرابعة من الخانة الهيروغليفية لاسم «كليوبطرة» لها صورة زهرة بساقها المنحني التي تقابل الـ O الموجودة في اسم هذه الملكة باليوناني، وفعلًا هي الحرف الثالث لاسم «بطليموس». والإشارة الخامسة تمثِّل لنا المتحركة A فهي صورة باز، ولم نرَها في اسم «بطليموس»، ولا بد من عدم إيجادها في خانة «بطليموس». والإشارة السادسة هي يدٌ مفتوحة تمثل الـ T، ولا توجد هذه اليد في كلمة «بطليموس»؛ حيث الحرف الثاني منها وهو الـ T مرسومٌ بشكل دائرة، وهي أيضًا T، وسنرى فيما بعدُ السبب في أن هاتَين الإشارتَين الهيروغليفيَّتَين تُلفظ بلفظ واحد، وتختلف في الرسم homophone. إن الإشارة السابعة لاسم «كليوبطرة» وهي فمٌ ينظر إلى الأمام تمثِّل الـ R اليوناني، ولا نجدها في خانة «بطليموس»، وفعلًا لا لزومَ لوجودها فيها. أخيرًا الإشارة الثامنة لاسم «كليوبطرة» يجب أن تكون A وهي في الواقع صورةُ الباز التي رأينها مرسومةً في المقطع الثالث لاسم «كليوبطرة».

فيتبيَّن للقارئ مما ذكر أن مقارنته أسماءَ الملوك من عهد البطالسة قد أوصلَته إلى المعرفة اليقينية من ثلاثة حروف، وهي i، p، c وإلى المعرفة الافتراضية من تسعة حروف، وهي a، e، b، d، t، i، m، n، o لم يقف «شامبليون» عند هذا الحد، بل واصل تحقيقاتِه الأولى بمداومة البحث بكلِّ همة، فشرع من ذاك الآن أن يحلَّ بواسطة الهجائية الأولية الخاناتِ الواردة في العاديات وآثار الفراعنة السابقة لعهد البطالسة. أما الخطاب الموجَّه منه إلى داسبي فلم يُصادف قبولًا لدى علماء اللغة القبطية، فحسب بعضُهم مثل أدوار «كاترميل» و«كلابروث» أن نتيجة أبحاث «شامبليون» لا تستحقُّ تعبَ الاستطلاع عليها، وآخرون هاجموه بالقول علانيةً، ودامَت مواصلة مناوأة هؤلاء الناس له حتى وفاته، وكان السببُ الداعي لذلك كراهتَهم له حسدًا. ولنذكر بين هؤلاء «كلابروث» الذي بعد وفاة «شامبليون» في سنة ١٨٣٢ وجَّه انتقادًا شديدًا على اكتشافه في تأليفه المعروف: «بحث انتقادي على تأليفات المرحوم «شامبليون» بشأن الهيروغليفية» Exmen critique des travaux de feu Champollion sur les hiéroglyphes.

وإذا صرفنا أنظارَنا عن هؤلاء المفترين يصحُّ أن نعتبر كتاب «مجمل المبادئ الأولية للغة الهيروغليفية»[١٤] الذي نشره في سنة ١٨٢٤ كتأليفٍ تكميلي لخطابه إلى «داسي». ألم يَعِد أعضاءَ الأكاديمية بأنه بعد وقتٍ وجيز سيتمكن من قراءة وترجمة أسماء الملوك الفراعنة خلاف الملوك البطالسة، ندَّد هؤلاء عليه القول بأنْ ليس في وسعه أن يحلَّ إلا أسماءَ الملوك البطالسة، ولكي يؤيد «شامبليون» حقيقةَ ما وعد به رأى نفسَه بين أمرين، إمَّا أن يُبرهن على أن الكتابة الهيروغليفية الواردة في خانات الفراعنة هي نفس الكتابة الموجودة في خانات البطالسة، أو أن يأتيَ باكتشاف جديد. ولم يمضِ وقتٌ كبير حتى أخلفَ ظنَّهم وأدهشهم في كتابه المشهور بخلاصة المبادئ الأولية الهيروغليفية، وبذلك قد أوفى «شامبليون» وعدَه الذي وعد به منذ سنتين أمام الأكاديمية، وحلَّ خاناتِ الفراعنة من الدولة الحديثة (١٥٨٠–١٠٩٠ق.م.) بيدٍ منيعة نطقَت له بفرط مهارته، الأمر الذي استوجب عليه عظيم الإعجاب، وكذلك خانات «رعمسيس» و«تحتمس» و«أمنحتب» و«بسامتيك»، وبهذا برهن أن الكتابة الهيروغليفية الواردة في خانات الدول الثلاث لم تكن كتابةً هجائية محضة مثل خانات «كليوبطرة» و«إسكندر»، ولا رمزية بحتة كما احتسب علماء اللغة القبطية في أيامه، ولكنها استُعملَت تارةً إشاراتٍ رمزية مثل رموز رع وتحوت، وتارة إشارات هجائية. قد أجلى في كتابه «خلاصة المبادئ الأولية للهيروغليفية» بهذا الوصف «أن الكتابة تشمل في آنٍ واحد على إشارات صورية رمزية وصوتية في نصٍّ واحد، وجملة واحدة وكلمة واحدة». ويجدر أن نعتبر هذا الكتاب كدستور للغة الهيروغليفية، وفيه أدلى ببراهينَ حاسمةٍ أنه يستطيع منذ الآن وصاعدًا أن يقرأ ويُترجم جميعَ النصوص الموجودة على جدران المعابد وجوانب المقابر من أيِّ دول كانت، سواء القديمة أو الوسطى أو الحديثة. نجد في هذا الكتاب تراجمَ عن نصوصٍ كثيرة أتبع فيها طريقتَي المقارنة والإسقاط؛ إذ يقارن الكلمةَ الهيروغليفية المجهول لفظها معناها بأخرى قبطية تتفق معها معنًى ولفظًا، وبهذه الطريقة العلمية اللغوية وصل «شامبليون» إلى معرفة معاني الكلمات المصرية وأوزانها وألفاظها، وساعده على ذلك إلمامُه التامُّ باللغة القبطية منذ حداثته. إن هذا الإلمام لم يساعده فقط على ضبط المعاني المجهولة، لكن أيضًا على النطق بها؛ لأنه من المقرر أن اللغة المصرية القديمة لم تكتب إلا الساكنات فقط مثل كثير من اللغات السامية الأخرى، أما اللغة القبطية فتدوِّن

[١٤] Précis de système hiéroglyphique. 1824.

المتحركاتِ مع الساكنات، فصارَت آلةً في يد «شامبليون» للحصول على المعاني وكيفية التلفظ باللغة الهيروغليفية. وبعد وضع الأساس المتين للكتابة واللغة الهيروغليفية وجَّه مجهوداتِه التي لا تعرف الكللَ إلى درسِ كلِّ العاديات والأوراق البردية المحفوظة في ديار التحف في أوروبا والمجموعات الخاصة، مستعمِلًا نفسَ طريقتَي المقارنة والإسقاط، وكانت نتيجة أبحاثه أنه أثبت بأجلى بيان أن كثيرًا من أسماء الملوك التي وردت في الورقة البردية المحفوظة في تورينو وجدول أسماء الملوك في أبيدوس (الآن العرابة المدفونة بمديرية جرجا) تتفق تمامًا مع أسماء الملوك التي ذكرها أدق مؤرخ مصري وهو «مانيتون» من سمنود (٢٧١ق.م.) وكان رئيسَ كهنة وكاتبَ الهياكل المصرية، فجاء كتابُه «الشئون المصرية Aegyptiaca» مثبتًا مرة أخرى صحةَ اكتشافه وترجمته النصوص، وبعد ضبط أسماء الملوك للدول الثلاث شرع «شامبليون» في عمل قائمة للمباني القديمة من معابد ومقابر ومسلات وشواهد وأوراق بردية حسب عصورها المختلفة، ثم بدأ أيضًا في ضبط أسماء آلهة مصر مثل «أزوريس» و«ست» و«إزيس» و«حورس» و«آتوم» و«آمون» و«خنسو» و«فتاح» و«تحوت» و«سخمت» ... إلخ.

تمكَّن «شامبليون» بعد جهادٍ متواصل وبمهارة نادرة المثال من أن يقرأ معظمَ النقوش التي عثر عليها في ديار التُّحف الأوروبية، وبها انكشف النقابُ عن مكنونات اللغة وأسرار الديانة المصرية أمام أعين المستشرقين المبهورين. فرأى «شامبليون» أنها تذلَّلَت أمامه كلُّ الصعاب، وتحقَّقَت أحلامُ شبابه. نعم انتصر انتصارًا باهرًا في ساحة علم الآثار المصرية، وصار له الفخرُ والفضل الأمثل في تكوين تأريخ مصر وحضارتها العريقة، ويصح القول بأن رموز اللغة وأسرار الديانة وعجائب أقدم حضارة في العالم ودفائن التاريخ عن ٦٠٠٠ سنة أصبح كتابًا مفتوحًا لأبناء الجيل التاسع عشر. ففي خطاب «شامبليون» إلى داسي صحيفة ٨ نوَّه عن أصل الهجائية الفينيقية، ومن الثابت أن الفينيقيِّين هم الذين استنبطوا الهجائية التي لم نجد فيها إلا إشاراتٍ عن حروفٍ ومقاطعَ وبطريقة المقارنة الهجائية المصرية مع الفينيقية استنتج «شامبليون» أن أصل الهجائية الفينيقية يرتقي إلى الهجائية الهيروغليفية، ثم تعمَّق «سالفوليني» الأثري الإيطالي في رأي «شامبليون»، ولكنَّ آراءَه لم تُصادِف قبولًا عامًّا إلا بعدما طرح جناب «دي روجيه» مسألةَ أصل الهجائية الفينيقية لبحث جديد وحلها حلًّا مرضيًا. وعلى حسب رأيِ «دي روجيه»[١٥]

[١٥] E. de Rougé. Mémoire sur l’origine égyptienne de l’alphabet phéenicien. 1859.

أنه يوجد بين الاثنين والعشرين حرفًا وهي مجموع الحروف الهجائية الفينيقية خمسة عشر حرفًا قد لَحِق بها بعضُ التغيير حتى يمكن بكل سهولة إيجادُ صورتها الأصلية الهيروغليفية، كما وأنه يمكن تقريبُ الأحرف السبعة الباقية إلى الأصل الهيراطيقي بإرجاع كثير. في سنة ١٨٢٣ وهي السنة التالية لاكتشافه العجيب نشرَ «شامبليون» تأليفًا جديدًا عنوانه هيكل جميع آلهة مصر Panthéon Egyptien وهو يتضمن رسومَ آلهةِ مصر على حسب الصور المنقوشة على جدران الهياكل وجوانب المقابر وتوابيت الأموات وحلي أوراق البردي، أصحبها بملحوظاتٍ شتى وإيضاحاتٍ قيِّمة هامة. وبعد مرور سنتين وهو متجول في متاحف أوروبا دارسًا جميعَ العاديات المصرية، مُرتِّبًا وواصفًا إياها بأوصافٍ علمية، كلَّفَته الحكومة الفرنسية أن يقوم ببعثة علمية إلى تورينو؛ حيث اشترى ملك سردينيا مجموعةً فاخرة من عاديات مصرية امتلكها «دوروفنتي» القنصل العام لحكومة فرنسا في مصر. وعلى أثر هذه البعثة كتب «شامبليون» مذكرةً قيِّمة عن هذه المجموعة النفيسة، حملَت «شارل العاشر» ملك فرنسا على شراء جزء منها لمتحف اللوفر. ونشر «شامبليون» مذكرتَه بعنوان «خطاب إلى دوك دي شابلاس بشأن المتحف الملكي في تورينو».[١٦] كما وأن نجد في رسائل أخرى وجَّهها إلى ذوي المقامات بفرنسا كثيرًا من التراجم عن أساطير وأقاصيص مصر الفرعونية التي استخرجها من أوراق بردية عثر عليها في متحف تورينو وسائر متاحف أوروبا، وتمكَّن «شامبليون» بعد ترجمة هذه أن يرسم جدولًا تقريبيًّا عن الأُسَر الفرعونية. كلَّفه أيضًا «شارل العاشر» الذي كان يشمله بكثير من عطفه ورعايته ويقدِّر نبوغَه ومجهوداتِه بأن يدرس العادياتِ المصريةَ المتفرقة في متاحف ليفرنو وروميَة ونابولي. وبعد أن أقام طويلًا في دار الكتب الفاتيكاني رسم قائمةً علمية لجميع أوراقها البردية باللغة المصرية القديمة والقبطية أيضًا. وبعد عودته إلى فرنسا اشترى على نفقة حكومته مجموعةً نفيسة من عاديات مصرية بلغ عددُها ٤١٠٤ قِطَع بمبلغ ٢٥٠٠٠٠ فرنك كان يمتلكها جناب سالت قنصل إنجلترا بالإسكندرية. وفي ذلك الحين أمكنه بعد شراء مجموعتَين كبيرتَين أن يكوِّن في متحف اللوفر قسمًا خاصًّا للعاديات المصرية معروفٌ بـ Galérie égyptienne du musée de Louvre.

وقبل افتتاحه رسميًّا ألَّف دليلًا لهذا القسم بالعنوان: وصف العاديات المصرية في متحف شارل العاشر.[١٧] وفي ١٥ ديسمبر سنة ١٨٢٧ افتُتح القسم المصري لمتحف اللوفر

[١٦] Lettre a Mr. le Due de Chablas relative au musée royal de Turin.

[١٧] Notice descriptive des monuments égyptiens du musée de Charles X.

بحضور جلالة ملك فرنسا ووزرائه. ولهذه المناسبة عُيِّن الملك «شامبليون» — مؤسس ذلك القسم — أمينًا له. ربما يظن القارئ أن «شامبليون» بعد نجاحه العجيب واشتماله بالرعاية الملكية وذيوع صيته، وقف عند هذا الحد واكتفى بعمله. كلَّا. بل هي شمائل الأبطال والنوابغ ألَّا يدَعوا للراحة موطنًا ولا تصدَّهم عن بغيتهم أيُّ صعوبة حتى يبلغوا ما تصبو إليه نفوسُهم الباسلة. نرى «شامبليون» أيضًا يضاعف الكدَّ والعمل وقلبُه يشعر بشديد الرغبة إلى رؤية مصر، لا في آثارها البديعة، البعيدة عن وسطها الطبيعي، والمرتَّبة في خزائن متاحف أوروبا، لكن إلى مشاهدتها في مكانها الأصلي والتمتع برؤيتها في موطنها الحقيقي في ضوء شمسِها الزاهي وجوِّها الصافي، إمَّا في السهول والأودية وإمَّا في الصخور وفي شقوق الجبال. ألم يكتب لأخيه يومًا وهو طالب على مقعد الدراسة: «أريد أن أجعل هذه الأمة القديمة موضوعَ درسي العميق المتواصل. إن وصف آثارها الخارقة للعادة اختطفني، وإعجابي الناشئ من مقدرتهم ومعارفهم يزداد يومًا فيومًا بازدياد معلوماتي عنهم؛ إذ لا يوجد بين جميع الشعوب التي أُحبُّها ما يُعادل حبِّي للمصريين.»

كانت رغبتُه متجهةً إلى أن يجمعَ بيده في مصر الآثارَ النفيسة، ويقرأ النقوشَ على جوانب المقابر، ويرسمها بأكثر دقة مما فعلَته الحملةُ الفرنسية من سنة ١٧٩٧–١٨٠٢. وكان اعتقادُه بأنه عند مشاهدة الآثار في وسطها الطبيعي سيفهمها أكثر، ويصفها بأتم الأوصاف؛ لذلك رفع في سنة ١٨٢٨ التماسًا إلى جلالة شارل العاشر بأن يقوم برحلة علمية إلى مصر والنوبة، وكان من عظيم حظِّه أن الدوك «دي شابلاس» مدير الفنون الجميلة في ذلك الوقت عضد التماسه. وأهم ما جاء في التماسه: إن أعضاء الحملة الفرنسية العلمية ومعظم السائحين الذين قَدِموا بعدهم إلى مصر ربما كانوا على شيء من الاقتناع عن عدم إمكان الوصول إلى فهم الإشارات الهيروغليفية، فلم يهتموا كثيرًا بدقة نُسَخ الحروف المقدسة المرفوقة بالصور الموجودة في النقوش التاريخية. نعم، كادوا أن يُهملوها تمامًا، واكتفَوا مرارًا بوضع علامة في المكان الخاص بالأساطير، أما في أيامنا فإن رسوم جميع هذه الأساطير والوقائع التاريخية التي تفسِّر بعضُها بعضًا ولا سيَّما جميع النصوص الهيروغليفية المرسومة بكل دقة ستزداد قيمةً وستُحقق ما علَّق عليه علماء التاريخ من الآمال العظيمة. إنه من المهم جدًّا أن نُكمل بأسرع وقت وبطريقة نهائية معلوماتِنا بشأن فنِّ العمارة والديانة والفنون والصناعة المصرية القديمة، حتى يكون جميعُ علماء أوروبا على بيِّنة من معرفة الآثار الباقية بمصر للآن. هذا لأن خطَرَ هادمي الهياكل وطالبي السماد وباني معامل السكر وناهبي المقابر، والضرر الناتج من الفيضان السنوي مع

جهل الفلاحين كل هذا قد تجسَّم. فكان سرورُه لا يُقدَّر لما رأى أن الحكومة أجابَت طلبَه وكلَّفَته بالقيام ببعثة علمية إلى مصر والنوبة. فسلَّم شارل العاشر إدارةَ هذه البعثة لـ «شامبليون». وسنرى أن هذه البعثة بفضل كفاءة «شامبليون» وزميله «روزيليني» الأثري الإيطالي أصبحت رحلةً قطع بها علمُ الآثار شوطًا عظيمًا إلى الأمام، وأتَت باكتشافات هامة. وكان «روزيليني» من أعز أصدقاء «شامبليون»، كما وأنه من أشهر المستشرقين في ذلك الحين؛ ولذلك كلَّفه «ليوبلد الثاني جران دوك تسكانا» بمرافقة زميله في مصر والنوبة. وقد ألَّف كتابًا مشهورًا باللغة الإيطالية عن الاكتشاف الذي أحرزاه عندئذٍ بعنوان «تفسير وتصوير آثار مصر والنوبة»،[١٨] وذلك بعد وفاة صديقه. على أثر تعيين «شامبليون» مديرًا للبعثة المذكورة ترك باريس في منتصف شهر يونيو سنة ١٨٢٨ وقلبُه طافحٌ بالفرح والآمال الطيبة بخصوص نجاح هذه البعثة. فرَكِب السفينة في ٣١ يوليو من ميناء طولون مارًّا بجزيرة صقلية إلى الإسكندرية. وبعد رحلة طيبة سعيدة دامَت تسعة عشر يومًا وصل في ١٨ أغسطس أرضَ ميعاده، وبعد وصوله ميناءَ الإسكندرية ومثوله بين يدَي محمد علي باشا الذي أَذِن له بعمل التنقيب، وأكَّد له ضمانَ التسهيل والإكرام من أولياء أمورِ كلِّ الجهات، وطلب منه ترجمةَ النصوص الواردة في مسلَّات الإسكندرية، بدأ أن ينقب أولًا ما بقيَ من الآثار في سايس[١٩] وأهرام سقارة والجيزة، حيث اكتشف مقبرة إيماي. وبعد مشاهدة آثار القاهرة نزلوا في قاربَين كبيرَين اسمهما إيزيس وأنتير، سائرين إلى جهة بني حسن. وهناك درس مدة أربعة عشر يومًا المقابرَ الزاخرة بالصور الملونة التي تمثِّل الحياة المدنية لقدماء المصريين.

ولنسمع الآن ما كتبه إلى أخيه الأكبر «شامبليون فيجاك» في أول خطاب له؛ إذ يعبِّر فيه عمَّا خالج قلبَه من عوامل الحبور، ومن الأماني بوصوله أرض مصر قبلة آماله قائلًا: وصلتُ في ١٨ أغسطس أرض مصر، وطالما تُقتُ إليها من أمدٍ بعيد، فهي لغاية الآن تُعاملني كأمٍّ حنون، وأَمَلي وطيدٌ أن صحتي ستبقى جيدةً كما هي الآن والحمد لله. شربتُ هنا بوفرةٍ ماءَ النيل الرحاق.

نقرأ أيضًا في مذكراته عن مصر الملآنة بالملحوظات الهامة والحوادث المضحكة التي حصلت له، وهي أنه لَمَّا وصل بجوار مدينة قنا شاهد جماعةً من التماسيح نائمة على

[١٨] I monumenti dell’Egitto e della Nubia interpretati ed illustrati. 12 vol. Pisa 1832–1844.

[١٩] سايس: مدينة قديمة بقرب صا الحجر في مديرية البحيرة.

إحدى جزر النيل في حرارة الشمس؛ إذ لا تُرى الآن شمالي مدينة أسوان إلا نادرًا لكثرة الاصطياد في النصف الأخير من الجيل المنصرم ولمرور البواخر الآن بكثرة فيه. كانت جميعُ خطاباته لأخيه تُنشر تباعًا في الجريدة الفرنسية المسماة Moniteur Universel. من هذه الخطابات تتبيَّن حالة مصر السياسية والاقتصادية والأثرية في تلك الأيام، أي من منذ مائة سنة مضَت تقريبًا. نشرَت كريمتُه مدام «شرفواك شامبليون» مرة أخرى خطاباتِ أبيها في سنة ١٨٦٦. في غضون سنة ١٨٢٩ سمح أولياء الأمور في بعض الجهات القبلية في مصر للأهالي بهدم وكسر الآثار التي هي الشواهد الخالدة عن ماضي مصر المجيد، وكان ذلك لعمل ورشات ومعامل منها، مثل آثار أنتينوبوليس (الشيخ عبادة) وهرموبوليس التي هي الآن الأشمونين وأنتيوبوليس (الكو الكبير) وكونترا لاتوبوليس (إسنا)، وما إنْ صدع هذا الخبرُ سماعَ «شامبليون» إلا وقام ناقمًا على هذا العمل المذموم، واعتبر أنه من أقدس واجب عليه أن يحتجَّ بصوتٍ عالٍ على هذا الأمر الشنيع الدال على فقد الشعور الوطنية بالكلية.

فلذلك رفع لجناب الخديوي المعظم محمد علي باشا مذكرة مسهبة يستلفت نظرَه العالي فيها إلى الأخطار المحدقة بالآثار المصرية التي أصبحت تحت الزوال، وكان من وراء ذلك أن الحكومة المصرية أسَّست فيما بعد مصلحةَ الآثار المصرية Service des Antiquités de l'Egypte المؤتمنة على صيانتها ودرسها.

أمر محمد علي مؤسس الأسرة الحالية المجيدة بإبطال مثل هذه الأعمال الشنيعة التي كَثُر حدوثُها في كثير من جهات الوجه القبلي في أوائل الجيل التاسع عشر. تردَّد «شامبليون» بين الإسكندرية والشلال الثاني زهاء الخمسة عشر شهرًا مفتقدًا جميعَ الهياكل القديمة؛ كهياكل أبيدوس ودندرة والكرنك ومدينة هابو وإدفو وكوم أمبو، منقِّبًا في جميع المقابر المعروفة لديه، ناسخًا كلَّ النقوش ذات القيمة التاريخية، ومدوِّنًا دعاويَها العريضة، واصفًا النقوش والرسومات التي على جدران المعابد وراسمًا أكبر المباني التي صادفَته. وما كان أعظم إعجابه من شدة التأثير الذي أوقعَته في نفسه مشاهدةُ بهوِ الأعمدة العظيم الذي بناه سيتي الأول ورعمسيس الثاني في معبد آمون بالكرنك بقرب الأقصر الذي طوله ١٠٣ أمتار، وعرضه ٥٢ مترًا، ويحتوي على ١٣٤ عامودًا مرتبًا في ١٦ صفًّا، وقد شرح هذا الوصف في إحدى رسائله:

لم توجد أمة قديمة أو حديثة أدركَت فنَّ العمارة بمقاييس عظيمة متناسقة مثل ما أدركه المصريون القدماء، فكأنَّ مخيلاتِ وإدراكَ أولئك المشيدين لا تتوافق إلا مع أناس جبابرة لا يقلُّ طولُ الواحد منهم عن مائة قدم، وأن قوَّتنا الخيالية التي تعلو عندنا في

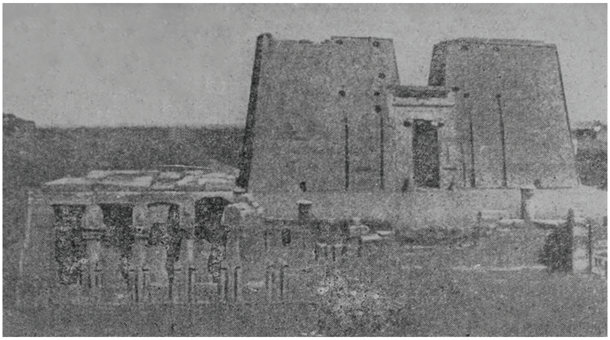

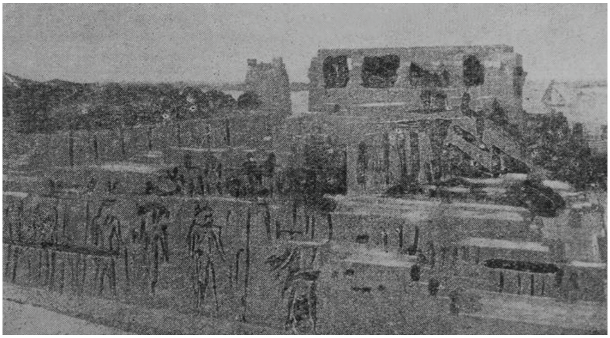

منظرَا معبدَي إدفو ودندرة اللذَين درسهما «شامبليون» غضون رحلته في مصر.

أوروبا أبواب منازلنا بقدر، تقف ها هنا وتسقط صاغرةً أمام القواعد التي لمائة وأربعين عامودًا فخمًا في بهوٍ طوله ٢٤ مترًا.[٢٠]

بوصوله إلى النوبة، وبعد أن فحص مقابرَ أبي سمبل الهائلة، أرسل خطابًا لداسي قائلًا فيه: بعد أن نزلت في النيل من مصبِّه لغاية الشلال الثاني، لي الحق والفخر أن أُحيطَكم علمًا بأني لا أرى لزومًا لتغيُّر أدنى شيء من مبادئ الموضحة في خطابي السابق لجنابكم، هجائيَّتي سليمة؛ لأني طبَّقتُها بكل نجاح أولًا على المباني التي من العهد الروماني، ثم من البطالسة وهو الأعظم، وجدتُها توافق النقوش التي على جميع الهياكل والمقابر والقصور

[٢٠] Lettres d'Egypte et de Nubie p. 98.

المغفور له محمد علي باشا الكبير رأس العائلة الملكية.

الفرعونية. لقد أجْدَتْني تشجيعاتُكم الطيبة التي منحتمونيها في الأيام السالفة نفعًا لما صادفَت أبحاثي عدمَ قبول لدى لفيفٍ من العلماء المستشرقين.

ولكي نعرفَ كيف قضى «شامبليون» أوقاتَه في مصر والنوبة وأي الصعاب تجشَّمها في عمله التنقيبي في مغائر أبي سمبل، هناك التماثيل الهائلة لرعمسيس الثاني، فليسمح لي القارئ بأن أقتطفَ له بعضَ عباراتٍ من إحدى رسائله إلى أخيه قائلًا:

التزمتُ لدخولي في هذه المغائر أن أخلعَ تقريبًا جميعَ ملابسي مبتطنًا الأرضَ أمام فتحة صغيرة لباب، لو أخذت من أمامه الرمال التي كدَّستها مرورُ الأجيال لكان ارتفاع ذلك الباب ٢٥ قدمًا على الأقل. يُخيَّل لي أني أمام باب تنُّور مستعر. وعندما انزلقتُ إلى الهيكل وجدت نفسي في جوٍّ يبلغ حرارتُه ٥١ درجة، ومكثتُ مع رفقائي في هذا المكان مدة ١٥ يومًا لأخذ رسم مكبر ملوَّن عن جميع النقوش التي ازْدانَت به جدرانُه. وفي غضون هذه المدة وأنا أشبه بعريان وجسمي يغمره العرقُ والماء المتصبِّب على عيني ويُبلل أوراقَ

الرسم التي أمامي، وقد أثَّرَت أيضًا عليها الأبخرةُ الساخنة، وأنا محروم من الهواء الطلق، كنت أتعجب وأنا في هذه الحالة من شجاعة شُبَّان بلادنا الذين يشتغلون كل يوم أربع ساعات في المعامل الحديدية والمناجم المعدنية، ويخرجون منها آخر النهار منهوكي القوة دون أن يُفارقوا أعمالَهم هذه إلا بعد أن تنوءَ أقدامُهم عن حمْل أجسامهم.

كان يساعد «شامبليون» في أخْذ الرسوم الرسامُ الماهر «نسطور لوت»، والمهندس المعماري «بيبنت»، ومفتش الفنون الجميلة «شارل لينورمانت»، ونخبة من الرسامين المهرة.

آه. ابن الأقاليم المعتدلة يتنقل من مصر إلى النوبة في أيام الصيف تُلازمه المتاعب الشديدة، وأعمال التنقيب في أكثر من سنة، ونسخ أكثر من مئات النصوص الهيروغليفية، ورسم الهياكل التي أجراها في جو لافح في سهول سقارة المحرقة، في مغائر بني حسن، في وادي الملوك عند طيبة القديمة، في صخور النوبة عند أبي سمبل، وفي صخرة أبي صير، حيث نقش اسمه بالهيروغليفي، كل هذه قد أضنَت صحتَه، فعاد إلى فرنسا في أوائل فبراير سنة ١٨٣٠ وقد خارَت قواه من العناء، وما زالت مصر القديمة عالقةً بلُبِّه وقلبه. وقبل مبارحته مدينة الإسكندرية قدَّم لجناب الخديوي المعظم موجزًا عن تاريخ مصر ومذكرة عن صيانة آثار القطر المصري، ووضع في هذا الكتاب قائمةً كاملة عن جميع آثار القطر المصري من الإسكندرية لغاية الخرطوم.

اعتبر «شامبليون» السودان جزءًا طبيعيًّا من مصر، لا يصح فصلهما أبدًا. وإذا قارنَّا بين تأليفات الآب «سيكار» اليسوعي (سنة ١٧٢٥) وتأليف وصْف مصر المشهور (١٨٠٩) نجد أن «شامبليون» هو الأول الذي ضمَّ إقليم النوبة إلى علم الآثار المصرية، كما وأنه أول أثري درس بكفاءة جميعَ المعابد الواقعة على ضفَّتي النيل من الشلال الأول لغاية الثاني. قد أبان للحكومة المصرية ما يجب عمله لصيانة وحفظ الآثار من عبث الفلاحين والمهندسين وتجار الموميات والتماثيل والناقبين غير الجديرين.

في ٢٥ مارس ١٨٣٠، أي بعد وقت قصير من عودته، عيَّنَته الحكومة عضوًا في أكاديمية الآداب ليحلَّ محلَّ جناب المرحوم برون اعترافًا بفضله العميم. وبصفته عضوًا لهذه الأكاديمية ألقى عدةَ مقالات علمية ثمينة بشأن تاريخ مصر وفنونها. ويجدر بنا أن نذكر منها مقالةً تلاها في سنة ١٨٣٠ شرح فيها بطريقة علمية العلاماتِ التي استعملها قدماءُ المصريين لضبط وتعيُّن الأوقات. وفي سنتَي حياته الأخيرة شرع مع زميله روزيليني في تدوينِ ونشرِ إنتاج أبحاثهما المشتركة عن مصر والنوبة في التأليف المشهور ب «آثار مصر

والنوبة» في أربعة أجزاء،[٢١] ولن يزال حتى الآن المرجع الأول في درس الآثار عند الأثريين المحدثين. ويا لَلأسف لم يُسعده الحظُّ ليرى نشرَ تأليفه هذا قبل موته. ظهر أولُ جزء من الرسومات الملونة في سنة ١٨٣١، ولم يتمَّ نشرُ باقي الرسومات إلا في سنة ١٨٣٥. أخذ «شامبليون فيجاك» على عاتقه بعد وفاة أخيه نشْر النقوش المختصة بتلك الرسومات وأرفقها بكثير من ملحوظاته، ثمَّ شرع ماسبيرو المدير السابق للمتحف الأهلي بالقاهرة في نشْر باقي الأجزاء حتى كمل عمل «شامبليون»، وتمَّ طبعُه بمساعدة الأستاذ دي روجيه تلميذ «شامبليون». أنشأت الحكومة الفرنسية في سنة ١٨٣١ مقعدًا لعلم المصرلوغية في كلية دي فرنس بباريس. وما هو بالغريب أنْ وقع اختيارُ الحكومة على «شامبليون» منشئ هذا العلم ليُلقيَ في ذلك المعهد الذي هو أكبر معهد علمي في فرنسا دروسَ الآثار المصرية ويربِّيَ نخبةً من الطلاب الأثريِّين.

ويا لَلحسرة أنه لم يلبث بضعة شهور متقلِّدًا هذه الوظيفة حتى اضطرَّه ضعفُ قوته الكلي إلى الاستقالة منها. وفي ٤ مارس سنة ١٨٣٢ بعد اعتزاله التدريسَ بقليل وافَته المنون على أثر سكتة قلبية نتيجة جهاده المفرط، واختطف الموتُ شخصَه الكريم من بين ذويه والعلم وخدمة الوطن، وذهب في دار الخلد مبكيًّا عليه من مواطنيه وكلِّ محبِّي العلم في أوروبا، وهذا قبل أن وضع يده الأخيرة لكتاب قواعد اللغة الهيروغليفية وقاموسها.

وقبل مفارقته الحياةَ وهو شاعرٌ بدنوِّ أجله قال لأصحابه وقلبُه مملوءٌ من الأسى: إنِّي أترك آجروميتي وقاموسي كبطاقة للخلَف.

لم يظهر كتاب القواعد الذي هو بلا ريب أنه من أنفس تآليفه إلا في ١٨٤١، كما وأنه لم يظهر القاموس الهيروغليفي إلا بعد وفاته بعشر سنين، أعني في سنة ١٨٤٢. وقد حدثَت بعد وفاته بعضُ أمور جديرة بالذكر، وهي: أن الحكومة الفرنسية استحوذَت بعد وفاته على جميع مخطوطاته، ووضعَتها حفظًا من ضياعها في المكتبة الأهلية بباريس، حيث لم تزَل حتى الآن. ونشر أخوه الأكبر بمشاركة بعض المستشرقين جزءًا من أهم مخطوطاته. وقد منحَت الحكومة قرينتَه معاشًا قدره ٣٠٠٠ ليرة.

حقًّا إنه من المدهش أن مصر الناهضة لم تُقِم لغاية الآن حتى في سنة التذكار المئوي لوفاته تمثالًا لمن له الفضل الأكبر في حفظ كثير من آثارها من طوارئ التلاشي، ومن شر أيدي العابثين ولِمَن فتح مغاليق تاريخ مصر، وأوقف المصريين على تاريخ آبائهم وأراهم

[٢١] Les Monuments de l’Egypte et la Nubie. 4 vol.

حقيقةَ ما قاله أفلاطون لمواطنيه: إن أجداد المصريين كانوا رجالًا حين كان اليونان أطفالًا، ولمن أحيَا لغتَها القديمة واستلفت أنظار العلماء والشعراء والمؤرخين الأوروبيِّين إليها، واستجلب كلَّ سنة عددًا وافرًا من السوَّاح من مختلف الأصقاع ليتعجبوا بمشاهدة جمال حضارتها الأثيلة.

نعم لمن المؤسف عليه أن مصر لم تُقِم تمثالًا ولا معهدًا يُخلد ذكراه لبني وادي النيل، حتى إنه ليظهر جليًّا للسائح الأجنبي في بلاد مصر أن في هذه الأيام التي تُلقَى في جميع جامعات أوروبا وأمريكا دروسُ علمِ الآثار المصرية، أن مصر كادت تنسى تلك الخِدَم الجليلة التي أدَّاها ذلك الرجل النزيه لمصر، إلا أن الحكومة المصرية منذ عشر سنوات لمناسبة يوبيل اكتشاف الحروف الهجائية للغة الهيروغليفية شرعَت في إقامة تمثال له في المتحف المصري تحت رعاية صاحب الجلالة المعظم فؤاد الأول ملك مصر محيي العلوم ومحب الآثار، إلا أن هذا المشروع لا يزال حتى الآن مُعلَّقًا ولم يخرج إلى حيِّز الظهور.

ولربما يقول بعض القرَّاء ما الداعي إلى نشر سيرة ذلك الرجل؟ فردًّا على ذلك نقول: حيث إن الكنيسة الكاثوليكية في مختلف العصور كانت ولا تزال أكبرَ وأقوى عامل لإنهاض وإنماء الروح الأخلاقي والعلوم والآداب والفنون، كما وأن القرَّاء الأجلَّاء من سلالة قدماء المصريين العظام، يهمُّهم كلُّ ما يتعلق بشأن ماضيهم، فخدمةً للدين والعلم اللذَين هما أبناء آب الأنوار، وبصفتي كاهنًا قبطيًّا كاثوليكيًّا عاملًا عملَ المبشر في الكرازة المرقسية بقرب سهول صان الحجر التي هي الشواهد لمعجزات موسى الكليم أمام فرعون الطاغي، رأيت أن أقدِّم هذه الأسطر إكرامًا لذكرى الطيب منشئ علم الآثار المصرية الذي ليس فقط أحيا مجدَ مصر الرفيع، ولكن أيضًا ترك لتلاميذه النجباء — مثل «ماربيت» باشا الذي اكتشف بقرب منفيس السرابيوم، وهو مدفن العجول المقدسة «أبيس»، وأسَّس مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصري وماسبيرو الذي اشتهر بأبحاثه عن تاريخ الحضارة والآداب والتطور السياسي والديني لمصر القديمة، و«دي روجيه» و«لوريت» — الأساليب العلمية للتعمق في أقدم لغة وللعمل التنقيبي ولسائر الاكتشافات العجيبة، ولكيفية استثمار مخبوآت كنوز مصر النفيسة في مستقبل الأيام.

نعم لـ «شامبليون» الفضل في أنه مهَّد الطريق لسائر الاكتشافات اللغوية والأثرية، كما وأن تلاميذَه المخلصين اقتفَوا أثرَ خطوات معلِّمهم السديدة، منهم «دي روجيه» الذي تعمَّق في درس اللغة الهيروغليفية، والنابغة الأثري الفرنسي «فرنسوا شاباس» الذي بعد مجهودات لا تُقدَّر كشفَ غوامضَ الخط الهيراطيقي، وكذا «بروكس» باشا الأثري الألماني

الذي حلَّ معقَّداتِ الخط الديموطيقي وأكمل عددَ الإشارات المقطعية الهيروغليفية، وألَّف في سنة ١٨٨٢ قاموسًا هيروغليفيًّا ديموطيقيًّا.

لم تكن الفوائد العائدة من اكتشاف «شامبليون» قاصرةً على أنها رفعَت النقاب عن الحضارة المصرية، وكشفَت بأجلى بيان تاريخَ مصر الزاخر بالمجد والرفعة، حتى صِرنا بعد مرور خمسة عشر جيلًا على معرفة مرْضية لرموز لغتها ولعقيدتها الوحدانية وآدابها السامي وعوائدها القومية وعلو حضارتها المادية وفنونها البديعة فحسب، بل إنها أيضًا جعلَت التفسير عمَّا جاء في الكتاب المقدس بشأن مصر مع الشعب الإسرائيلي أمرًا ميسورًا، وبهذا كلِّه خدم «شامبليون» الدينَ والعلم أجلَّ الخِدَم.

تم بعونه تعالى.

المجد لله.

في ١٧ توت سنة ١٦٤٩ للشهداء الأطهار

«مصحح» عيد ارتفاع الصليب المجيد

هنـــداوي